

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

التَّثْنِيَةُ بِذِكْرِ
ابْتِلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ
بَعْدَ فِتْنَةِ النَّاسِ

بعد أن أخبر النظم الجليل عن أقسام الناس وحالهم في الفتنه والاختبار، وأخبر عن الأذى في سبيل الله تعالى بسبب الإيمان، وأخبر عن ابتلاء المؤمنين بأذى الكفار لهم؛ أتبع ذلك بالإخبار عن ابتلاء الأنبياء وفتنتهم بأذى قومهم، فبدأ بقصة نوح ﷺ، فساق القصة شاهداً على ما لاقاه الأنبياء والرسل من الأذى وتكذيب الأقوام؛ ليكون صبر الأنبياء مثابةً وأسوةً للناس والمؤمنين⁽¹⁾.

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

- (1) ﴿فَلَبِثَ﴾: (لبث) أصلٌ يدلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقَالُ: لَبِثَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ⁽²⁾، وَفَيَّدهُ الرَّاغِبُ بِكَوْنِهِ إِقَامَةً بِالْمَكَانِ عَلَى وَجْهِ الْمُلَازَمَةِ لَهُ⁽³⁾، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةِ مُمْتَدَّةٍ لِلْمَكَانِ⁽⁴⁾، يُقَالُ: لَبِثَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ مُلَازِمًا لَهُ، وَاللَّبِثُ عَنْ فُلَانٍ، أَي: انتَظَرُهُ حَتَّى يُبْدِيَ انتِظَارَكَ إِيَّاهُ خَطَأَ رَأْيِهِ⁽⁵⁾، وَاسْتَلْبِثَهُ: إِذَا اسْتَبْطَأَهُ، وَهُوَ اسْتَفْعَلَ مِنَ اللَّبِثِ، وَهُوَ الْإِبْطَاءُ وَالتَّأَخُّرُ⁽⁶⁾، وَالْمَقْصُودُ بِاللَّبِثِ فِي الْآيَةِ: أَقَامَ مَعَ قَوْمِهِ زَمَانًا طَوِيلًا.
- (2) ﴿سَنَةٍ﴾: (سنه) أصلٌ يدلُّ عَلَى زَمَانٍ، فَالسَّنَةُ مَعْرُوفَةٌ⁽⁷⁾،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 36/25، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 33/7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/20.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).

(3) الراغب، المفردات: (لبث).

(4) جبل، العجم الاشتقاق: (لبث).

(5) ابن عتاد، المحيط في اللغة: (لبث).

(6) الرِّيْدِي، تاج العروس: (لبث).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنه).

وهي: الحَوْلُ اثنا عشر شهراً⁽¹⁾، والسَّنَةُ مُطْلَقَةً: السَّنَةُ الْمُجْدِبَةُ، أَوْقَعُوا ذَلِكَ عَلَيْهَا إِكْبَارًا لَهَا وَتَشْنِيعًا وَاسْتِطَالَةً، يُقَالُ: أَصَابَتْهُمْ السَّنَةُ، وَالْجَمْعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ سَنَهَاتٌ وَسِنُونٌ⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، عبارة عن الجذب، يقال: أَسَنَتِ الْقَوْمُ: أَصَابَتْهُمْ السَّنَةُ⁽³⁾.

(3) ﴿عَامًا﴾: (عوم) العامُ الحَوْلُ يَأْتِي عَلَى شَتْوَةٍ وَصَيْفَةٍ، وَالْجَمْعُ أَعْوَامٌ⁽⁴⁾، سُمِّيَتْ السَّنَةُ عَامًا لِعَوَمِ الشَّمْسِ فِي جَمِيعِ بَرُوجِهَا، وَيَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الْعَوَمِ قَوْلُهُ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]⁽⁵⁾، العام: اثنا عشر شهراً كالسَّنَةِ، إِلَّا أَنَّ الْعَامَ إِذَا أُطْلِقَ؛ غَلِبَ فِي الْخَصْبِ، وَالسَّنَةُ فِي الْجَدْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]، وقوله: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾⁽⁶⁾.

(4) ﴿الطُّوفَانُ﴾: (طوف) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى دَوْرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُخَفَّ بِهِ، يُقَالُ لِمَا يَدُورُ بِالْأَشْيَاءِ، وَيُغَشِّيْهَا مِنَ الْمَاءِ: طُوفَانٌ⁽⁷⁾، وَالطُّوفَانُ: الْمَاءُ الَّذِي يَغْشَى كُلَّ مَكَانٍ، وَيُحِيطُ بِهِ⁽⁸⁾، وَالطُّوفَانُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: مَا كَانَ كَثِيرًا مُطِيفًا بِالْجَمَاعَةِ كُلِّهَا، كَالْغَرَقِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَدُنِ الْكَبِيرَةِ، وَالْمَطَرِ، وَالْقَتْلِ الذَّرِيعِ، وَالْمَوْتِ الْجَارِفِ⁽⁹⁾، فَهُوَ: كُلُّ حَادِثَةٍ تُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ، وَصَارَ مُتَعَارِفًا فِي الْمَاءِ الْمُنْتَاهِي فِي الْكَثَرَةِ؛ لِأَجْلِ أَنَّ الْحَادِثَةَ الَّتِي نَالَتْ قَوْمَ نُوحٍ كَانَتْ مَاءً، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾⁽¹⁰⁾، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: مَا طَافَ بِهِمْ، وَغَلِبَهُمْ مِنْ مَطَرٍ أَوْ سَيْلٍ⁽¹¹⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ النَّظْمُ الْجَلِيلُ عَنْ صَبْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَفَتَنَتِهِمْ بِكُفْرِ قَوْمِهِمْ بَادئًا بِقِصَّةِ نُوحٍ ﷺ،

(1) السَّمين، عمدة الحفاظ: (سنه).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (سنه).

(3) الزَّاعِب، للفردات: (سنه).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (عوم).

(5) الزَّاعِب، للفردات: (عوم).

(6) السَّمين، عمدة الحفاظ: (عوم).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).

(8) الخليل، العين: (طوف).

(9) الرَّجَاج، معاني القرآن وإعرابه: 4 / 164، والنَّحَّاس، معاني القرآن الكريم: 5 / 217.

(10) الزَّاعِب، للفردات: (طوف).

(11) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكشاف: 2 / 146.

افتتأَنُ الأنبياءِ
بأذى أممهم
وصبرهم على
شدائد الدَّعوة

فيخبر تعالى أَنَّهُ بعظمتِهِ أرسلَ نوحًا برسالةٍ إلى قومه الذين يعرفونه، ويعرفون حالَهُ وصَلاحه؛ ليدعوهم إلى عبادةِ اللَّهِ تعالى وحدهُ، وقد لبثَ فيهم زمانًا طويلًا لذلك، ولكنَّهُم أَصْرُوا على الكفر، واستكبروا حتَّى أخذهم الماء بالطوفان؛ لكونهم قومًا ظالمين لأنفسهم مستحقِّين للعذاب⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

معنى (الواو) في ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾:

بعد ذِكر ما
يجري مع أهل
الإيمان؛ شرع
في قصِّ ما جرى
لأولي العزم من
الرُّسل

افتتح النَّظْمُ الجليل الجملةَ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ بالواو الاستثنائية⁽²⁾، فبعد أن فَصَّلَ النَّظْمُ الجليل في شأن النَّاسِ وأنواعهم من حيثُ الإيمان والكفر، وما ذكره من شأن الابتلاء والصَّبر، وبيان علم الله تعالى وقدرته على إنجاء المؤمنين، وتعذيب الكافرين؛ شرع في ذكر ما جرى للرُّسل الكرام من البلاء، ومع ذلك لم يفتروا عن دعوة العباد ونصحهم؛ تسليَّةً لرسوله ﷺ، ولمن آمن به، وتهديدًا ووعيدًا لمن كفر به.

معنى ﴿وَلَقَدْ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

تأكيدُ الإرسال
لنقضِ دعوى
الاكتفاء بهداية
الله تعالى

أكَّد النَّظْمُ الجليل الجملةَ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ باللام الموطَّئة للقسم المحذوف، و(قد) الدَّالة على التَّحقيق⁽³⁾، وقد علَّل البقاعي استهلال القصَّة بالتَّأكيد تعليلًا بارعًا عامًّا لكلِّ الرِّسالات بقوله: "وأكدَّه دفعًا؛ لوهم من يقول: إِنَّ القدرة على التَّصرف في القلوب مغنية عن الرِّسالة في دار التَّسبُّب"⁽⁴⁾، فقدرة الله تعالى على قلب القلوب ليست مغنية عن الرِّسالة، فيها تقوم الحجَّة على العالمين.

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرِّحمن، ص: 627.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10 / 318.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10 / 318.

(4) البقاعي، نظم الذَّرر: 14 / 403.

سُرَّ إِيثَارِ لَفْظِ الْإِرْسَالِ دُونَ الْبَعْثِ:

آثَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ التَّعْبِيرَ بِالْإِرْسَالِ دُونَ الْبَعْثِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾؛ لَأَنَّ الْإِرْسَالَ مَخْتَصٌّ بِكَوْنِهِ حُمْلَ رِسَالَةٍ إِلَى قَوْمِهِ، وَالْبَعْثُ أَعْمٌ؛ لِأَنَّهُ "يَجُوزُ أَنْ يَبْعَثَ الرَّجُلُ إِلَى الْآخَرِ لِحَاجَةٍ تَخْصُهُ دُونَكَ وَدُونَ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِ، كَالصَّبِيِّ تَبْعَثُهُ إِلَى الْمَكْتَبِ، فَتَقُولُ: بَعَثْتُهُ، وَلَا تَقُولُ: أَرْسَلْتُهُ؛ لِأَنَّ الْإِرْسَالَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِرِسَالَةٍ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا" (1).

إِرْسَالُ رَسُولٍ
تَصْرِيحٌ بِتَضَمِينِ
رِسَالَةٍ

نَكْتَةُ إِسْنَادِ الْإِرْسَالِ إِلَى ضَمِيرِ الْعِظَمَةِ:

أَسْنَدَ النَّظْمُ الْجَلِيلُ الْإِرْسَالَ إِلَى نَوْنِ التَّعْظِيمِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾؛ لِتَعْظِيمِ الرِّسَالَةِ، أَيْ: أَرْسَلَنَاهُ بِمَا لَنَا مِنَ الْعِظَمَةِ (2)؛ تَفْخِيمًا لِلْإِرْسَالِ وَالتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْعِظِيمَةِ بِعِبَادِهِ، فَهُوَ إِرْسَالٌ عَظِيمٌ؛ لَصُدُورِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَتِهِ أَنَّهُ يَحْمِلُ الْهَدَايَةَ لِلنَّاسِ، وَمِنْ مَظَاهِرِهِ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ تَعْرِيفِ النَّاسِ بِخَالِقِهِمْ، فَالْعِظَمَةُ تَأْتِي مِنَ الْمَصْدَرِ وَمِنْ الْغَايَةِ وَمِنْ الْمَضْمُونِ، فَإِنَّ الْعِظَمَةَ تَحْفُ الْإِرْسَالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَحَسَنَ أَنْ يُعَبَّرَ بِضَمِيرِ التَّعْظِيمِ.

الْإِرْسَالُ رَحْمَةً
عَظِيمَةً مِنْ
مُرْسَلٍ عَظِيمٍ
وَتَعَالِيمٍ جَلِيلَةٍ

مَعْنَى ﴿إِلَى﴾ فِي الْقَيْدِ ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الْجَلِيلُ بِحَرْفِ الْجَرِّ ﴿إِلَى﴾ الدَّالِّ عَلَى انْتِهَاءِ الْغَايَةِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ الرِّسَالَةَ إِنَّمَا كَانَتْ الْغَايَةَ مِنْهَا قَوْمُهُ أَنْفُسُهُمْ، وَلَمْ يُرْسَلْ إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَهُ.

مَقْصَدُ الرِّسَالَةِ
بَلُوغُ التَّعَالِيمِ
لِلنَّاسِ

وَجْهٌ إِيثَارِ لَفْظِ الْقَوْمِ عَلَى الْمَلَأِ:

آثَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ التَّعْبِيرَ بِلَفْظِ الْقَوْمِ دُونَ الْمَلَأِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾؛ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ كَانَتْ عَامَّةً إِلَى جَمِيعِ الْقَوْمِ، وَلَيْسَ مَخْتَصَّةً بِالْمَلَأِ الْأَشْرَافِ مِنْهُمْ.

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 403 / 14.

دلالة الإضافة في ﴿قَوْمِهِ﴾:

إِنَّمَا يَتَّبِع النَّاسُ
مَنْ يَعْرِفُونَ
حَالَهُ

أضاف النظم الجليل القوم إلى الضمير العائد على نوح ﷺ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾؛ للدلالة على أنَّ الرسول معرَّف لديهم، فهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً، ويعرفون صدقَه وخُلُقَه، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم⁽¹⁾، وهذا أدعى لقبول الدَّعوة منه، فإنَّ النَّاس لا يتَّبِعون من يجهلون أمره وشأنه.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَبِثَ﴾:

ملازمة الكافرين
واجبة لتبليغ
الرَّسالة

عطف النظم الجليل اللَّبث على الإرسال بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ للدلالة على أنَّ لبثه فيهم أعقب الإرسال، وأنَّه حدث بسببه⁽²⁾، فبقاء نوح وملازمته لقومه إنَّما وقع بسبب إرساله إليهم، وهذا يدلُّ على أخذ نوح الرِّسالة بقوة وعزيمة لا تتوانى.

دلالة التَّعبير باللَّبث دون المكث:

طوُلُ المقام
وملازمة القوم
في الدَّعوة لبثَّ
لا مكث

آثر النظم الكريم التَّعبير باللَّبث دون المكث في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ لأنَّ اللَّبث يدلُّ على ملازمة المكان وطول الإقامة، أمَّا المكث؛ فيدلُّ على الانتظار، فلمَّا طال بقاء نوح ﷺ في قومه؛ عبَّر عنه باللَّبث لبيان طول ملازمته لقومه في دعوته.

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِمْ﴾:

لا يَهْلِك على الله
إلا هالك

عبَّر النظم الجليل بحرف الجرِّ (في) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ للدلالة على أنَّ لبثَه وطول ملازمته كانت في قومه وبين ظهرا نبيهم يدعوهم، ويرشدهم، فلم يفارقهم، وفي ذلك بيانٌ لقيام الحجَّة عليهم.

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11095 / 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 404 / 14.

نكتة تقييد لبثه ﷺ بالجار والمجرور:

قَيَّدَ النَّظْمُ الْجَلِيلُ لِبَثِ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ كَائِنٌ فِي قَوْمِهِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ لتأكيد كون ذلك العمر المتطاوُل كان فيهم فقط، فلم يخرج منهم، ولم ينقطع عنهم صوتُ الدَّاعي، فكلُّ المدَّة التي قضاها نوح ﷺ في الدَّعوة كانت بين ظهراني قومه، وفي ذلك أبينُ في وقوع الحجَّة عليهم، وأدُلُّ على شدَّة إصرارهم على الكفر.

نكتة التعبير بمفردة الـ ﴿أَلْفَ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الْجَلِيلُ بلفظ الألف لبيان المدَّة التي لبثها نوح ﷺ في قومه في قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ لأنَّ ذِكْرَ الألف أفخَمُ وأوصل إلى الغرض⁽¹⁾، وفيه تخييلُ طولِ المدَّة، والمرادُ بيانُ عِظَمِ المدَّة التي قضاها فيهم، فذكر الألف لأنَّه رأسُ عددٍ جَرَّتِ العادةُ على تكبير المعداد به⁽²⁾، والمقصود من بيان مدَّة بقاء نوح في قومه هذه المدَّة الطَّويلة تسليَّةُ المؤمنين والنَّبِيِّ ﷺ، وتشبيهِتهم على الإيمان إزاء الأذى، والفتنة التي تلحقهم بسبب إيمانهم بالله، فقد كان النَّبِيُّ ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر، فأخبر بقصَّة نوح ﷺ، وأنَّه لبث ألف سنة تقريباً في الدُّعاء ولم يؤمن من قومه إلَّا قليلٌ، وصبر، وما ضجر فأنت أولى بالصَّبر لقلَّة مدة لبثك وكثرة عدد أمَّتكَ، وأيضاً كان الكفارُ يفترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا، فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يفتروا؛ فإنَّ العذاب يلحقهم⁽³⁾، ففيه إظهارُ ركاكةِ رأي الذين يحسبون أنَّهم يُتركون بلا ابتلاءٍ⁽⁴⁾.

استغرقت دعوة
نوح لقومه
عمره كلّهُ دون
أن يغادرهم

في نوح أسوّة
حسنة لمن آمن
وفتن

(1) القوّجي، فتح البيان: 10 / 173.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14 / 404.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25 / 36.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 33.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾:

استثناء المعداد
يدل على تحققه
على التمام
خاليًا من الزيادة
والنقصان

بَيْنَ النَّظْمِ الْجَلِيلِ مَدَّةَ بَقَاءِ نُوحٍ فِي قَوْمِهِ بِطَرِيقَةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: (تسعمئة سنة وخمسين)؛ لأنَّ الاستثناء يدلُّ على أنَّ العددَ المذكورَ محقَّقٌ، أي: لبث هذا المقدار بلا زيادة أو نقص، ولو قال الجملة الثانية؛ لدلَّ على أنَّ الرَّقْمَ قد يكون قد ذُكِرَ على وجه التَّقْرِيبِ لا التحقيق، فعِبَارَةُ الْقُرْآنِ أَكْثَرُ اخْتِصَارًا وَأَجُودُ بِنَاءً وَأَعْدَبُ صِيَاغَةً⁽¹⁾.

ذَكَرَ الْعَدَدَ
الْأَعْلَى فِي مَرَاتِبِ
الْأَعْدَادِ يَنْاسِبُ
طَوْلَ مَدَّةِ
الدَّعْوَةِ وَيَدْعُو
إِلَى التَّأْسِي بِهِ

وَفِي ذِكْرِ مَدَّةِ لَبِثِ نُوحٍ ﷺ فِي قَوْمِهِ بَيَانٌ أَنَّهُ صَبَرَ كَثِيرًا، فَالْنَّبِيُّ ﷺ أَوْلَى بِالصَّبْرِ مَعَ قَصْرِ مَدَّةِ دَعَائِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَذَكَرَ الْعَدَدَ الَّذِي فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْأَعْدَادِ الَّتِي لَهَا اسْمٌ مُفْرَدٌ مُوَضَّوعٌ، فَإِنَّ مَرَاتِبَ الْأَعْدَادِ هِيَ الْآحَادُ إِلَى الْعَشْرَةِ، وَالْعَشْرَاتُ إِلَى الْمِئَةِ، وَالْمِائَاتُ إِلَى الْأَلْفِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ التَّكَثِيرُ بِالتَّكْرِيرِ، فَيُقَالُ: عَشْرَةُ آلَافٍ، وَمِئَةُ آلَافٍ، وَآلُفُ آلَافٍ⁽²⁾.

نكتة المغيرة بين تمييز الأول بالسنة والثاني بالعام:

السَّنة دَالَّةٌ
عَلَى شِقَائِهِ
بَدْعُوهُمْ،
وَالْعَامُ دَالٌّ
عَلَى الرَّغْدِ بَعْدَ
غُرْقِهِمْ

غَايِرَ النَّظْمِ الْجَلِيلِ بَيْنَ التَّمْيِيزِ، فَاسْتَعْمَلَ الْعَامَ وَالسَّنةَ، فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، وَالْفَرْقُ: أَنَّ الْعَامَ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا كَانَ خَيْرًا رَغْدًا، وَالسَّنةَ فِيمَا كَانَ شَدِيدًا مُجْدَبًا، فَجَعَلَ لَفْظَ (السَّنةَ) تَمْيِيزًا لِسَنَوَاتِ الدَّعْوَةِ قَبْلَ الْفِيضَانِ، وَذَلِكَ لِذِمِّ أَيَّامِ الْكُفْرِ وَبَيَانِ شِدَّتِهَا، وَجَعَلَ لَفْظَ (الْعَامِ) تَمْيِيزًا لِلزَّمَانِ بَعْدَ النِّجَاجَةِ مِنَ الْفِيضَانِ؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمَرْحَلَةَ بَعْدَ إِغْرَاقِهِمْ كَانَتْ رَغْدًا وَخُصُوبَةً وَنَمَاءً⁽³⁾.

(1) الفخر الزاوي، مفاتيح الغيب: 36/25، والبقاعي، نظم الدرر: 404/14، والقنوجي، فتح البيان:

173/10.

(2) الفخر الزاوي، مفاتيح الغيب: 36/25.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 404/14.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾:

عطف النظم الجليل الأخذ على الإرسال في قوله جل شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالفاء؛ للدلالة على التعقيب، أي: أخذهم عقب تمام المدّة المتطاولة⁽¹⁾، كما أنّه يدلُّ على أنّ عدم إيمان القوم برسولهم سببٌ في أخذهم وعذابهم.

دلالة التعبير بالأخذ في ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾:

أثر النظم الكريم التعبير بلفظ الأخذ في قوله جل شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ لما فيه من الدلالة على شدة الأخذ والقهر والغلبة فيه، فأخذهم أخذًا فيه شدة وعنف في التناول⁽²⁾.

دلالة التعبير بـ ﴿الطُّوفَانُ﴾ مادةً وصيغةً:

عبّر النظم الجليل بلفظ الطوفان، في قوله جل شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، دون الماء؛ وذلك للدلالة على الماء الكثير الذي طاف بهم جميعًا، وأحاط بهم، فهو تعبيرٌ عن شدة ذلك الماء وقوّته وامتلاء الأرض به⁽³⁾، والطوفان مَصْدَرٌ مِثْلُ الرُّجْحَانِ والنُّقْصَانِ⁽⁴⁾، سُمِّيَ به الماء الكثير، وهو ما يُغشى منه، ويُعذّب النَّاسَ⁽⁵⁾، ويُغرقهم لكونه يحيط بهم، ويدور حولهم، وينزل بهم.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾:

افتتح النظم الجليل ختامَ جملةِ الفاصلة في قوله جل شأنه: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالواو الحالّية، للدلالة على الحال الذي أخذهم فيه، أي: أخذهم الطوفان في حالة كونهم مستمرّين على الظلم⁽⁶⁾، ودلّ هذا الحال على إصرارهم على الكفر ومعادنتهم، وعلى أنّ

أخذُ القوم
الظالمين يعقب
انتهاء مدّة
الدعوة بلا تأخير

الأخذ دليلٌ
على العذاب
القاهر الشامل
المستأصل للقوم

أحاط بهم الماء
وغشاهم حتّى
استأصلهم

الأخذ والتعذيب
وقع حال
تلبّسهم بالظلم

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4 / 226.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18 / 11098.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 4 / 226، وينظر: البقاعي، نظم الدرر: 14 / 404.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (طوف).

(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 7 / 4185.

(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11 / 21.

الأخذ كان في حالة تلبسهم بالشرك وتكذيب الرسول، تلبسًا ثابتًا لهم متقررًا، وجاء التعبير عن الحال بالجملة الاسمية؛ للدلالة على استقرار الحال فيهم وثباته، فالظلم متلبس فيهم تلبسًا لا ينفك عنهم⁽¹⁾.

نكتة التعبير بضمير الفصل (هم):

أكد الله تعالى وصفهم بالظلم في قوله: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالتعبير بضمير الفصل (هم)؛ للدلالة على أنه تعالى أهلهم، وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه؛ لما أهلهم؛ لأن الله تعالى لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم، وتاب، فإن الظلم وجد منه، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم⁽²⁾.

دلالة التعبير بالظلم في الخبر ﴿ظَالِمُونَ﴾ مادة وصيغة:

آثر النظم الكريم التعبير عنهم بصفة الظلم في قوله جل شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ للدلالة على أنهم مشركون، فيضعون العبادة في غير موضعها؛ إذ يكذبون الرسول مع ظهور الدلائل الدالة على صدقه، ويصرون على ذلك، وجاء التعبير عنه بصيغة اسم الفاعل؛ للدلالة على عراقة الظلم فيهم وثبوتها في صفاتهم⁽³⁾.

بلادة التعريض للمشركين بالإخبار عن أخذ الظالمين:

عرّض النظم الجليل بالمشركين، في قوله جل شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فالإخبار عن أخذ قوم نوح بالطوفان تعريضًا بالمشركين بأنهم يسيرون إلى المصير ذاته⁽⁴⁾، فلما كان قوم نوح ظالمين، والمشركون ظالمين بما أشركوا بالله تعالى، وكذبوا رسوله ﷺ؛ فإن مصيرهم واحد.

الإصرار على
الظلم أمانة
استحقاق
الإهلاك

وضع العبادة
في غير موضعها
ظلم ثابت في
المشركين ما لم
يتوبوا

أخذ الظالمين
سنة لا تتوقف،
لعل السامع
يتعظ، والظالم
يرتدع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/20.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 37/25.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 404/14.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/20.

❖ الفروق المُعْجَمِيَّة:

السنة والعام:

العام: اثنا عشر شهراً كالسَّنة، إلا أنَّ العام إذا أُطلق؛ غلب في الخصب، والسَّنة في الجذب، قوله: ﴿قَلْبَتْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ في كون المستثنى منه بلفظ السَّنة، والمستثنى بلفظ العام لطيفة حسنة، وهو أنَّ هذه الخمسين بقاءه بعد هلاك قومه، فهي أعوامٌ خيرٍ حيث هلك الكفرةُ المتمرِّدة، وبسطه في غير هذا⁽¹⁾، فبين السَّنة والعام فرقٌ دقيقٌ في الدَّلالة؛ فالسَّنة تستعمل في الشَّدة، والعام في الرِّخاء، وفي الآية الكريمة استثنى الأعوام من السَّنين؛ فدلَّ ذلك على أنَّ نوحًا عليه السلام عاش ألف عامٍ إلا خمسين سنة قبل الطُّوفان، وقد عبر عنها القرآن الكريم بالسَّنة؛ لأنَّها كانت سني شِدَّةٍ عليه، فقد عانى فيها من قومه ما عانى من العناد والإعراض والإصرار على الكفر والعصيان، وأنَّه عاش بعد الطُّوفان خمسين سنة، وقد عبَّرَ عنها بالعام؛ لأنَّها كانت أعوامَ راحةٍ ورخاءٍ حتَّى وفاته بعد هلاك قومه بالطُّوفان⁽²⁾.

السَّنةُ للشَّدة
والجذب،
والعام للرخاء
والخصب

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عوم).

(2) عبد الجبار الحمداني، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 486.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الزّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الزّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 42، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-732-93-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الزّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»